الفصل الثانى عشر

قونيـــة

قلقت أفكار الدول لهذه الانتصارات المتوالية ، واختلفت آثار هذا القلق باختلاف الطباع . فأما الطبقة الحاكمة من الإنجليز فإنها تدربت فى المهد على ضبط أعصابها وكبح جماح شعورها ، حتى قيل إن الطفل منهم لا يفطم حتى يعرف الدرس الأول فى كبت عواطفه . وذلك هو سبب اتزان عقولهم وهدوئهم فى أوقات الخطر . ومع ذلك فقد قلقت الحكومة الإنجليزية وهالها تقدم جيش إبراهيم ؛ لكنها لم تضطرب ، بل ظلت محتفظة بهدوئها ، لأن الذين يقودون زمامها رجال مرنوا على هذه الأخلاق التى وصفناها من قبل . ولذلك ظلت ترقب الأمور وتنتظر ما تمخض عنه الأيام .

أما الصقالبة فليس فى مقدورهم أن يضبطوا شعورهم ، وذلك لأنهم قوم سريعو التأثر مندفعون ومعاندون ، تعودوا أن يندفعوا حيث يخشى الملائكة أن يمشوا على مهل[1] . ولذلك لا نعجب إذا استولى الرعب على مستشارى القيصر عند ما هزم الأتراك فى ممر بيلان ، فأصدروا أوامرهم إلى رجال القنصلية[2] بأن يقطعوا صلاتهم بمحمد على[3] . ولما اجتمع قنصل الروسيا العام بالباشا اجتماعه الأخير ، بسط له محمد على آماله بصراحة فقال :

(١) يشير إلى قول پوپ الشاعر الإنجليزى « إن الحمق يندفعون حيث يخشى الملائكة أن يمشوا على مهل » . (المعرب)

(٢) لم يكن للروسيا بعثة دبلوماسية فى مصر .

(٣) قطاوى فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٥٣٧ .

« بينى وبين عبد الله خصومة حقة ، ولـكنها لا تتعداه إلى الأسرة السلطانية ، وإن كان أهل ديار بكر ولواء بغداد ، والولايات الجنوبية من آسيا الصغرى و بلاد من تركية أوربا ، يهمهم أن تعظم قوتى و يتسع ملكى . وقد صرح كثير من أولئك الأقوام برغباتهم ؛ ولـكننى لا أسعى للجلوس على عرش السلطان رغم علمى بما يدور فى الآستانة ، و بمقدرة الباب العالى الحقيقية .

« إن فى استطاعتى أن أنزل السلطان عن عرشه بهجمة موفقة يقوم بها أسطولى ، ولـكنى لا أحب أن أعتدى على حقوق أبنائه ، لأنهم خلفاء النبى . وليس معنى هذا أننى أرهب جيوش السلطان ، فقد وصل ولدى إبراهيم فى زحفه إلى أطنة ، وستكون أعماله فيها أبلغ أثراً من جميع المناورات السياسية ؛ وذلك لأننا نعيش فى عصر تترك السياسة فيه للظروف حل كثير من المشكلات ، ولا يتحرك فيه الناس إلا بعد وقوع الحادثات .

« وجدير بجلالة السلطان الأعظم أن يتدبر عواقب هذه الحرب التى لا تستطيع قواته أن تخوض غمارها . إنه يسمينى عاصياً و ينسى أننى استوليت على مصر بسيفى ، وأن أحداً لا يستطيع أن يخرجنى منها إلا بحد السيف . فأنا تابع السلطان ، ولـكننى أحتل مصر بحق الفتح ، و إنى و إن فتحت الشام سأظل تابعاً له ودعامة لعرشه »[1] .

لقد فرغنا من وصف طباع الإنجليز والصقالبة . أما الفرنسيون فقد امتزجت طباعهم اللاتينية الأساسية بطباع من صنف آخر . فـكما أنهم فى مطابخهم تطغى التوابل على الأطعمة حتى تـكاد تكون هى كل شىء ، كذلك هم فى سياستهم يغلبون مصالحهم على عواطفهم ، و إن كانوا يهتمون بهذه العواطف التى تشرفهم وتعلى

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٥٤٢ .

قدرهم . وعلى هذا فلما سمعت باريس بأن عكا قد سقطت ، وأن فيالق إبراهيم تكتسح بلاد الشام كالسيل الجارف ، كتبت وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصلها العام فى الإسكندرية بما معناه :

« إذا كان الوالى يسره أن يعترف بما لرجال الفن والمهندسين والجنود الفرنسيين من فضل عليه ، فإننا نحن أيضاً نفخر بأننا قد ساعدنا على إنشاء دولة وإنماء قوة جديرة بالتعاون معنا ، ويهمها كما يهمنا أن تعمل لرخاء بلاد البحر الأبيض المتوسط . وستكون الحكومة الفرنسية فى المستقبل كما كانت فى الماضى ، دائمة الاستعداد لأن تبرهن للباشا على صداقتها وحسن نيتها »[1] .

وليست هذه الرسالة إلا مثلا من الرسائل السياسية البارعة التى لا تدل عبارتها على شىء ، وقد يفهم منها أى شىء . وقد قال ميمو فى رده عليها :

« إننا الآن نواجه أزمة من الأزمات العظيمة التى تتحكم فى مصائر الدول ... لقد نشأت فى العالم دولة عربية لها السيطرة على البلاد المقدسة ، وفيها مقر الخلافة (كذا) وهى دولة مركزها لا يرام ، بل تتقطع دونه الأعناق ؛ وليس فى مقدور جنود السلطان محمود وأساطيله أن تقف فى وجه محمد على »[2] .

وهكذا وقفت الروسيا موقف المتوعد ؛ وأخذ القنصل الفرنسى العام يستقصى ويبحث ، ونفض الإنجليز أيديهم من الأمر كله . وكان لهذا الموقف الذى وقفته تلك الدول الثلاث أثره فى الخطة التى سار عليها محمد على .

لقد كان فى حربه مع السلطان يعمل بالقول المأثور عن الأصحاب المسيحيين (Quakers) « لن أوذيك أو أمسك بسوء ، وكل ما سأفعله أن أشعر رأسك بشىء

(١) « بعثة البارون بوالكنت » : مصر والشام فى عام ١٨٣٣ تأليف جورج دون طبعته الجمعية الجغرافية الملكية بمصر سنة ١٩٢٧ ص ١ .

(٢) دون فى كتابه « بعثة البارون بوالكنت » السالف الذكر ص ١١ .

من التعب » . ذلك أنه كان يؤكد دائماً أنه تابع أمين لمولاه ، وأنه لا يحارب الباب العالى ، وإنما يسعى للدفاع عن نفسه بتقوية تخومه .

وكان فى قوله هذا صادقاً إلى حد ما ، كان صادقاً فى أنه لم يكن يحاول خلع السلطان محمود ، أو يطمع فى عرش السلطنة ، أو يرغب فى تقطيع أوصال الدولة العثمانية . وكل الذى كان يسعى إليه فى رأينا هو أن يؤسس فى مصر دولة تحكم نفسها بنفسها ، عزيزة الجانب متسعة الرقعة ، تشمل مصر والشام و بعض الأقاليم المجاورة لها ، وأن تكون ولاية هذه البلاد الواسعة المستقلة له ولأسرته من بعده .

لقد كان محمد على أصيل الرأى إلى درجة تقرب من أصالة الاسكتلنديين ، نافذ البصيرة فى شؤون العالم إلى درجة منقطة النظير . وكان طموحا لا تقف به همته عند حد ، ولا تعوزه صفة من الصفات التى كان يبغضها ولزى Wolsey [1] ، لكنه كان قبل كل شىء رجلاً عمليًّا حاذقا فطنا قوى الإدراك ، صرف كل جهده إلى ما يستطيع نيله . وكان حكيما بعيد النظر لا يتعلق بالآمال الخداعة العزيزة المنال ، تسمو به نفسه إلى أعلى الدرجات ، ولكنه لا يبنى آماله على شفا جرف هار . لا يخطو خطوة إلا بعد تدبر و إمعان ، يتبع فى سياسته ذلك المبدأ المعروف « تبصر وقف واستمع » . وكان دائم الاتصال بكل ما يجرى حوله .

---

(١) الكردينال ولزى (١٤٧٥ — ١٥٣٠) وزير هنرى الثامن ملك إنجلترا . ظل هذا السياسى يسيطر على شئون بلاده الدينية والسياسية ست عشرة سنة كاملة تمتع فيها بسلطة لم يتمتع بها إنجليزى غيره قبله أو بعده إلا بعض الملوك . وقد استخدم فى الوصول إليها والاحتفاظ بها كل وسيلة مستطاعة ومنها الكذب والرياء والخداع والقسوة والشراسة وشراء الضمائر . وكانت مطامعه لا تقف عند حد . أما الصفات التى يبغضها فهى التى يشير إليها شيكسبير فى آخر الفصل الثانى من رواية هنرى الثامن والتى يذكرها ولزى بعد سقوطه ويحذر منها صديقه كرمول وهى التى كان يتصف بها أيام مجده وأهمها الطموح وحب النفس وبغض الأعداء والحاسدين الخ . (المعرب)

وكان له وزير أرمنى يدعى بوغوص بك من أفراد الأسرة التى أنجبت أولئك الساسة الشرفاء الأفذاذ ، والتى كان منها نوبار باشا وزير الخديو إسماعيل . ولربما كان بوغوص « رائده وفيلسوفه وصديقه »[1] ، لكنه هو كان على الدوام يقظا لايفوته شيء مما يقال أو يحدث حوله ، عرف حقيقة قرقرة الوعيد الصادرة من القنصليتين الروسية والفرنسية ، وأدرك ما يمكن أن يتمخض عنه سكوت الإنجليز .

أما إبراهيم فكان بينه و بين دور تلك القنصليات مئات الأميال ، ولم يكن فى مقدوره أن يتعرف منها نيات الدول ؛ وكل ما كان يراه أمامه هو سهول الأناضول توحى إليه أن يجتازها مسرعا إلى الآستانة . وكان يرى العمارة المصرية تخوض عباب البحر الأبيض المتوسط ، وتتحدى أسطول الدول العثمانية ؛ وترتسم فى مخيلته دولة عربية موطدة الأركان ، تعتز بما تعتز به الدول الإسلامية ، وهو امتلاك الحرمين ، ويصون استقلالها جيش مظفر . لقد نشأ إبراهيم فى جيل غير الذى نشأ فيه أبوه ، فلم يكن لاسم تركيا فى عقله تلك الروعة السحرية ؛ فلو أنه دك أسوار الآستانة بمدافعه لدكها وهو آمن من وخز الضمير ؛ ولو أنه أراد أن يسوق السلطان إلى المنفى ، لفعل ذلك دون تردد ؛ ولو طلب إليه أن يشترك فى تقطيع أوصال الدولة العثمانية ، لما أعرض عن هذا المطلب أو ونى فى إجابته .

ولربما كان إبراهيم أنفذ بصيرة من أبيه العظيم ؛ وليس من شأننا نحن أن ندلى برأينا فى ذلك الموضوع ، فقد يكون هذا وقد لا يكون ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن ما يسميه الساسة « بالأمر الواقع » قد أتى بأعجب النتائج وأبعدها

(١) من قول پوپ فى مقالته الشهيرة فى الإنسان Essay on Man فى السطر ٣٩٠ من الرسالة الرابعة .

عن الظنون ؛ وأكبر ظننا أن الجيش التركى والأسطول ما كانا يقويان على منع إبراهيم من الوصول إلى أسكدار[١] . ولو أنه وصل إليها لاستفتح باب الفتنة فى الآستانة ، ولانتشرت الفوضى فيها ؛ وليس يبعد فى هذه الحال أن يضطر محمود إلى اعتزال الملك . ولسنا نجزم أن الدول كانت تمنع هذه الحركة ، بل نشك كثيرا فى أنها كانت تفكر فى وقفها . نقول ذلك وأمامنا تقرير كتبه القنصل النمساوى فى الإسكندرية إلى مترنيخ فى ١٨ يونية سنة ١٨٣٢ يقول فيه :

« تسيطر الروسيا فى الوقت الحاضر على السلطان ، وفرنسا وإنجلترا تحسدان القيصر من أجل ذلك ، وتفضلان أن تريا محمداً عليًّا على عرش السلطنة ، لأنه يستطيع أن يحيى موات الدولة العثمانية ، ويجعلها حصنا قويا فى وجه الروسيا »[٢] .

ولقد أوضح إبراهيم رأيه فى رسائله لأبيه . فكتب أولى هذه الرسائل فى ٥ شعبان سنة ١٢٤٨ وهو يقابل ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ . وكان محمد على وإبراهيم يؤرخان رسائلهما بالتاريخ الهجرى دائما ، وقد حولنا نحن هذا التاريخ وغيره إلى ما يقابله فى التقويم الجريجورى لمنع اللبس والاضطراب . وسنضرب صفحاً عن هذه الرسالة الأولى ، وننتقل إلى رسالة أخرى بعث بها إبراهيم فى ٢٠ يناير سنة ١٨٣٣ إلى محمد على ، يبلغه أن إدارة مخابراته نقلت إليه أن طريق الآستانة مفتوح أمامه ، وأنه لا توجد فى هذا الطريق قوة حربية تقف فى وجهه . ثم انتقل من هذا الكلام إلى السياسة العليا فقال :

« فى استطاعتنا أن نعقد صلحاً شريفاً بوساطة رفعت باشا ، ولكن أكبر

(١) تقرير مرسل من الآستانة إلى وزارة الخارجية فى حكومة بيدمنت ومؤرخ ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٢ وقد جاء فيه بصريح العبارة أن لا شىء يستطيع أن يمنع إبراهيم من الزحف على الآستانة . انظر سمارکو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ١٦٢ .

(٢) سمارکو فى كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ٣٥٤ .

ظنى أننا لا نستطيع أن نحسم هذا النزاع القائم بيننا حسما نهائيا ، أو نضع قواعد صلح دائم ما بقى السلطان محمود ، ذلك الشيطان الخبيث ، جالساً على العرش . . . لذلك لا أرى بدا من الرجوع إلى عزمنا الأول ، فنخلع ذلك الرجل الشرير ، ونستبدل به ولى العهد . وإذا فعلنا ذلك فسيهز هـذا القرار الخطير تلك الأمة هزا عنيفاً يوقظها من سباتها » .

وفى هذا دليل على أن إبراهيم كان يرى أن يتذرع بأشد الوسائل لتحقيق مطالب أبيه ، ولـكنه لم يكن يشير على محمد على بأن ينتزع صولجان الملك من يد السلطان ، بل كان يرضى كل الرضا أن تظل الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وأن يبقى بنو عثمان جالسين على العرش . غير أنه كان يدعو إلى العمل السريع الحاسم . ومما يدل على حـذقه السياسى الفقرة الآتية التى تلى الفقرة السالفة فى رسالة إبراهيم :

« ولرب معترض يقول إن أوربا لا توافق على اقتراحى هذا . وجوابى أننا يجب علينا أن نقدم على العمل دون إبطاء ، قبل أن تدرك أوربا شيئاً من أغراضنا . فخطتى كلها قائمة على الإسراع فى العمل حتى نتمه قبل أن تتدخل أوربا فى الأمر ؛ وإذا وجدت الدول الأوربية نفسها وجهاً لوجه أمام النتائج التى سنصـل إليها ، ثم تذرعت بهذه النتائج لتقسيم الدولة العثمانية ، فهل نلام نحن على ذلك ؟ وهل فى وسعنا أن نحول بينهم وبين تحقيق حلمهم الذى ظل ماثلا أمام أعينهم أربعة وثمـانين عاما كاملة ؟ وقانا الله السوء ! ومع ذلك أليس الخير أن يتحقق الآن ما لا بد أن يتحقق فى يوم من الأيام ، حتى يسهل حل تلك المشكلة التى تمسنا فى الصميم ؟ »[1] .

(١) المحفوظات الملـكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

هذا ما كان يفكر فيه إبراهيم . أما محمد على فكان يرجو المستحيل ، كان يرجو أن يسوى أمره مع السلطان ؛ ولذلك كان من رأيه أن لا يتعجل إبراهيم الحوادث ، و بخاصة لأن تقدم الجيش المصرى السريع كان يحتم عليه الآن أن يتريث حتى تنظم ثمار الفتح . ولو أن سيل الانتصارات الجارف ظل متدفقاً فى سيره دون تمهل ، لما كان ثمة حاجة إلى هذا التريث . ولكن رغبة الباشا فى أن لا تتعسر الأمور على رجال السياسة ، بسبب أعمال ولده ، جعلت إبراهيم يقف موقف الدفاع أربعة أشهر كاملة بعد موقعة مرسيلان (٢٩ يولية سنة ١٨٣٢) .

و بينما كان هذا القائد النشيط واقفاً موقف الانتظار ، وجه عنايته إلى المسائل الإدارية ؛ فقسم الشام ثلاث مناطق جعل مراكز الحكم المدنية والعسكرية فيها حلب وصيدا ودمشق[1] . واستتب الأمن والنظام فى أنحاء البلاد بفضل سياسته المتنورة . وخير شاهد على هذه السياسة إعلانه المؤرخ ٥ أغسطس سنة ١٨٣٢ الذى نشره على أهل الشام لما دخلت جنوده بيت المقدس والذى يقول فيه :

« فى القدس من المعابد والآثار ما يجعلها كعبة يحج إليها المسيحيون واليهود من أبعد الأقطار . ومن حق جموع الحجاج أن يشكوا من الضرائب الفادحة التى تفرض عليهم وتجبى منهم فى الطرقات العامة . وقد صحت عزيمتى على إلغاء هذه العادة ، ولذلك آمر الحكام المسلمين فى ولاية صيدا ومراكز القدس وطرابلس وما جاورها من المناطق الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، أن يمتنعوا عن جباية الضرائب على اختلاف أنواعها ، سواء منها ما كان يجبى فى الطرق أو فى غيرها من الأماكن .

(١) سمارکو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ٢٣١ .

« وكذلك أدعو جميع الحكام المحليين أن لا يفرضوا ضرائب غير مشروعة على رجال الدين المسيحيين ، الذين يؤمون الأماكن المقدسة ليؤدوا شعائر دينهم »[١] .

ولو أن مرسوماً كهذا أصدر بعد أن ساد السلام واطمأن الناس شهوراً عدة ، لكان دليلا على أن صاحبه قد أشبعت نفسه روح التسامح والحرية ؛ فما بالك وهو صادر وسط دوى المدافع وقعقعة السلاح ؟ إنه ليدل على أن الذى أصدره كان رجل حرب وسياسة ، يدبر الحركات الحربية بعقله ، ويعطف على الناس بقلبه .

ولم يغفل إبراهيم عن الضرب على أيدى رجال الحكم فى الشام ، ومنعهم من سلب أموال الناس . وذلك لأنه كان يشعر أن احتلال الشام سيكون احتلالا أبديا ، فعمل على إنقاص الفوائد الباهظة التى كان يتقاضاها الجباة ووكلاء الأعمال والصيارفة . وخصص جزءا من النهار لاستقبال الناس وتلقى ملتمساتهم . وجاءه يوماً من الأيام رجل مسن من أهل الجبال وألحف فى السؤال ، فقال له إبراهيم فى آخر الأمر : « لقد قرأت اليوم نحو مئتى ملتمس ، فمن حقى أن أتمتع بقسط من الراحة ؛ ولكن ثق بأنى سأعنى بفحص ملتمسك » .

واغتنم أهل الناصرة عطف إبراهيم وشكوا إليه قسوة حاكمهم ، فأمره إبراهيم أن يقدم حسابه ؛ ولما ثبت له أنه قد ابتز منهم ستة آلاف قرش فوق ما يجب عليهم أداؤه ، حكم عليه فى الوقت والساعة بالسجن مع الأشغال الشاقة اثنى عشر شهراً فى قلاع عكا[٢] .

---

(١) المصدر عينه جزء ١٠ ص ١١٤ .

(٢) ياتس فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٧ .

و يخيل إلينا أن إبراهيم فى خلال الشهور التى قضاها فى النظر فى أمور أهل البلاد التى أخضعها الله لسلطانه ، كان هو ومحمد على يرجوان أن تتمكن العمارة المصرية من تحطيم الأسطول العثمانى . ولقد سبق القول أن محمداً عليا كان شديد الدهاء واسع الحيلة ، ولذلك لا نستبعد أن يكون قد هداه تفكيره إلى هذه الخطة التى سنعرضها هنا ، لا على أنها حقيقة مقطوع بصحتها مؤيدة بالدليل ، بل على أنها مجرد ظن منا قد يكون صحيحاً وقد لا يكون : يخيل إلينا أن الباشا لم يكن يشك فى أن الباب العالى حصر كل همه وتفكيره فى جيش محمد على ، واعتقد أنه ما دام هو قادراً على منع إبراهيم من التقدم ، فإن السلطان يقبل التفاوض معه . ولذلك رأى أن ينتهز فرصة انهماك الآستانة فى أمر إبراهيم وشدة بطشه ، فتباغت العمارة المصرية الأسطول العثمانى وتحطمه ، فيزداد بذلك مركزه قوة على قوته . والذى يجعلنا نعتقد بصحة هذا الرأى أن محمدا عليا كان شديد الإيمان بفائدة القوة البحرية ، ولذلك لا نستطيع أن نتصور أنه كان يقنع ببقاء أسطوله معطلا فى هذا الوقت الخطير . وتدل أوراق سمارکو على أن القنصل النمساوى العام فى الإسكندرية كتب إلى مترنيخ فى ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٢ يبلغه أن :

« تفوق أسطول محمد على على أسطول الأتراك أصبح أمراً لا شك فيه ، وأن ضباط أوربا البحريين كلهم مجمعون على ذلك . فإذا نظرنا إلى مصير الحرب من هذه الناحية لم يخالجنا شك فى أنها ستكون وبالا على الأتراك »[1] .

وفى الرسائل التى بعث بها القناصل إلى بلادهم إشارات كثيرة إلى حركات الأسطولين[2] . ومثال ذلك التقرير المؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٢ فإنه يؤكد

(١) سمارکو فى كتابه السالف الذكر جزء ٩ ص ٣٣٧ .

(٢) المصدر عينه جزء ١٠ ص ٤٥ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ١٢٠ .

هذه الحقيقة البادية للعيان وهى أنه « لو أظهر الأسطول المصرى ما أظهره الجيش لقضى على الدولة العثمانية »[١] . وذكرت فى تقرير آخر تلك العبارة الخطيرة وهى أن « الأسطولين يرقب كلاهما الآخر ولا يجرؤ على مهاجمته »[٢] . وإذا قلبنا صحف كدلفين وبرو وهما كاتبان معاصران دقيقا الملاحظة يقول فيهما جان مارى كريه Jean-Marie Carrè إنهما « سائحان منزهان عن الهوى واسعا الاطلاع »[٣]، إذا قلبنا صحفهما وجدنا فيها تفسيراً لهذا المسلك الغريب الذى سلكه أمير البحر المصرى ، ورأينا فيها صورة تكاد تمثل لنا الشرق القديم أصدق تمثيل .

وكان هذا الضابط الذى تلقى الأمر بالبحث عن العدو ومهاجمته[٤] ، ولكنه لم ينفذ ما أمر به ، هو عثمان نور الدين ابن أحد خدام محمد على الخاملى الشأن . وقد نال نور الدين بذكائه النادر المبكر حب محمد على ، فعنى بتعليمه وعينه بعد ذلك كاتبا فى القلعة . ثم صار فيما بعد مدرساً ، ولكنه ارتكب ذنبا خطيرا أحفظ عليه محمداً عليًّا فحكم عليه كما تقول إحدى الروايات بالموت غرقا . ويقال إنه وضع فى زكيبة وجىء به إلى نهر النيل ، فرآه رجل فارسى من موظفى المطبعة الأهلية ، فرشا القواص الذى عهد إليه بتنفيذ الأمر ، وأخذ منه نور الدين وأخفاه عنده ، ثم شفع له عند الباشا فعفا عنه وضمه إلى إحدى البعثات المدرسية ، وأرسل إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ليتم تعليمه .

(١) المصدر عينه جزء ١٠ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر عينه جزء ١٠ ص ٢٩٨ .

(٣) السياح والكتاب الفرنسيون فى مصر مطبعة معهد الآثار الفرنسى الشرقى بالقاهرة ١٩٣٣ .

(٤) سمار كو فى كتابه السالف الذكر جزء ١٠ ص ٦٤ . انظر أيضاً تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى طبعة أرثر برتران بباريس ١٨٣٧ ص ٢٢٠ .

ولما كان فى أوربا كسب عطف جميع من عرفوه ، واستطاع أن يتقن بسهولة مظاهر الثقافة الغربية الخلابة ، وتعلم اللغات الأوربية بسهولة أثارت الإعجاب . ثم عاد إلى مصر وكان بعد عودته يعد نابغة فى علم الغرب ومثلاً أعلى للشرقى المتصف بصفات أهل أوربا وفتحت أمامه أبواب الرقى ، وأصبح ملجأ الناس فى المهمات ، ومازال يرقى فى مناصب الدولة رقيا سريعا لا يكاد يصدقه العقل ، حتى وصل فى قليل من الزمن إلى رتبة القائد الأكبر للقوات البرية والبحرية ، لا يعلو عنه فى المرتبة إلا إبراهيم . ثم عين بعدئذ أميرا للأسطول المصرى ، فتهيأت له بذلك الفرصة ليبرهن على كفايته . لكنه لأمر ما أضاع الفرصة التى سنحت له للاشتباك مع العدو ، وقنع بالإحداق به والترصد له ، ورغب عن منازلته وأسره . ولا ندرى أكان ذلك راجعاً إلى قلة اكتراثه بخطط ولى نعمته ، أم لعدم كفايته ، أم خور عزيمته ، أم غدره وخيانته »[1] .

إن النبات الدخيل لا يقوى على احتمال ما يحتمله النبات الأصيل . ولقد كان إبراهيم شرقيا أصيلا ، تربى تربية شرقية ، وكان يتكلم اللغات التركية والعربية والفارسية ، وكان ملما بتاريخ الشرق ومثقفاً ثقافة شرقية خالصة ، وإن كان يلوح أنه تعلم شيئاً من اللغة الفرنسية فيما بعد[2] . لذلك لم تفتنه المظاهر الخلابة ، واختبر فكان صادق المخبر ، بعكس نور الدين فقد كان هو الرجل الذى لا يتورع عن قبول الرشا .

وقد أشار موريه إلى « الغدر الكامن فى صدر نور الدين[3] » ، ولكنه

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٢٣٣ .

(٢) بريس دافن وآرمن فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٨ .

(٣) موريه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ١٩٧ ، انظر تاريخ نور الدين فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن بك الرافعى (المعرب)

لا يورد دليلا يؤيد به هذه التهمة ، مثله فى ذلك مثل كدلفين وبرو ؛ ويؤكد كذلك أن هذا القائد كان جباناً ، وقد يكون صادقا فى هذا التأكيد ؛ ويروى أن إبراهيم كان يزدريه أشد ازدراء ، ولم يغفر له قط تمكينه الأسطول العثمانى من الهرب[1] . ويخيل إلينا ، فى ضوء ما لدينا من المعلومات ، أن الباب العالى أدرك ما يرمى إليه محمد على ، وعرف كما عرف الوالى أهمية انتصار الأسطول المصرى فى البحر ، ولذلك أخذ يغرى نور الدين حتى رأى من مصلحته أن يكون جباناً .

وفى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٢ كتب السفير التسكانى فى الآستانة إلى وزير خارجيته يبلغه أن الأسطول العثمانى قد ألقى مراسيه فى الدردنيل ، وأن السلطان أخذ يجيش جيشاً جديداً بقيادة الصدر الأعظم رشيد محمد باشا . ومعنى هذا أن مهزلة الحرب البحرية قضى عليها ، وأن المسألة المصرية تطورت تطوراً جديداً . وجاء فى رسالة أخرى أن القائد العثمانى العام رجل فى منتهى النشاط والذكاء والشجاعة . ولسنا نشك فى صدق هـذا القول ؛ فلو أن رشيداً باشا كان ينازل خصما أقل من إبراهيم يقظة وبأساً وكفاية ، لأثبت بالفعل صحة هذا الوصف . لـكن قائد عبد الله لم يستطر لبه روعاً حينما نزل الصدر الأعظم إلى الميدان وزحف برجاله نحوه ، بل قابل إبراهيم هـذا الزحف الشبيه بزحف رتشمند Richmond[2] بإصدار الأوامر إلى جيشه بأن يتقدم نحو قونية حيث تلتقى الطرق الآتية من الشام وآسيا الصغرى ، ثم تسير إلى الآستانة على بعد مائة فرسخ إلى غربيها[3] .

(١) المصدر عينه جزء ٣ ص ١٩٨ .

(٢) هنرى تيودر إرل رتشمند (١٤٥٧ — ١٥٠٩) من النبلاء الانجليز أيام حرب الوردتين هاجم الجيوش الانجليزية وانتصر عليها فى موقعة بزورث واستولى على العرش وسمى هنرى السابع وهو مؤسس أسرة تيودر الانجليزية . (المعرب)

(٣) فى الأصل الإنجليزى إلى الشرق وذلك سهو من غير شك .

وبدا أن لا بد من اشتباك الفريقين فى موقعة فاصلة ؛ وأرسل قيصر الروسيا فرقاطة روسية تدعى العلم إلى الآستانة ، تقل سفيراً خاصا هو الجنرال موراڤيف General Muraviev ، ليعرض على السلطان معونة القيصر الحربية . ولكن إبراهيم لم ينتظر حتى تتم هذه الدسيسة السياسية ، بل خف من فوره وزحف على عدوه ، حتى أقبل عليه فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ . فرأى الجيش التركى جيشاً عرمرما يفوق جيشه فى كثرة العدد . وحدث أن تلبدت السماء بالسحب فانتهز إبراهيم هذه الفرصة ليخفى عن العدو حركاته ؛ ولم ينقشع الضباب إلا بعد أن حاقت الهزيمة بالجيش العثمانى ، وأمسى المساء و إذا بالقائد العثمانى رشيد محمد باشا أسير فى أيدى المصريين ، و إذا الطريق إلى الآستانة مفتوح أمام إبراهيم .

ولم يغفل إبراهيم حتى فى ساعة النصر عن خطة والده السياسية . ومع أنه رأى الصدر الأعظم أسيراً فى يديه فإنه لم ينس واجبه لأبيه . فنظر إلى أسيره نظرته إلى ممثل جلالة السلطان رئيس الدولة الأعلى ، ورد إليه سلاحه الذى كان قد انتزع منه فى خلال النهار ، ثم سار بنفسه نحو عدوه المغلوب ليقدم له واجب الإجلال ؛ وأصر على أن يكون للمشير العثمانى المكان الأول . ولما كان القائد المصرى قد أظهر نحو عدوه إجلالا لا يتفق بحال مع موقفه فى ذلك الوقت ، فقد ظن رشيد باشا أن فى الأمر مكيدة مدبرة له . فلما قدمت له القهوة قال إنه فى حاجة إلى الماء ، وإنه يفضل تناول قدح منه . فلما عرض عليه شراب محلى رفضه وكرر طلب الماء ، وذلك لأن الماء يتغير لونه إذا وضع فيه السم . وعندئذ أمر إبراهيم أحد رجاله بأن يحضر الشراب ؛ فجىء بالشراب المثلوج الملون على الفور وقدم للصدر الأعظم ؛ فشعر عندئذ بأن المنية قد وافته ، ومد يده

وهو رابط الجأش . فمنعه إبراهيم من تناوله ، وأخذ القدح بيده ، ورفعه إلى فمه وشرب مما فيه ؛ وعلت شفتاه ابتسامة الظفر والازدراء ؛ وكذلك ظل القائد التركى ثابتاً رزيناً . ولما شرب إبراهيم نصف ما فى القدح ناوله إلى الصدر الأعظم ، فشرب بقيته . ولم يتبادل الرجلان حديثاً فى أثناء هذه الحفاوة حتى إذا ما فرغا منها كان كل منهما قد وثق بصاحبه واطمأن له[1] .

وبلغ من شدة حرص إبراهيم على جميع مظاهر الخضوع للصدر الأعظم أنه أصر على اعتباره القائد الأعلى للجيش المصرى ، حتى أنه لما أصدر الأمر لجيوشه فى اليوم الثانى بعد الموقعة بأن تتعقب العدو المنهزم أصدرها باسم أسيره . وما كان أجدر الصدر الأعظم أن يردد فى ذلك الحين هذا القول المأثور : « الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو »[2] .

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣١٥ .
(٢) تكوين ٢٧ : ٢٢ .